

## تجربة فاضل نعمة وآفاقه

### ذاكرة خصبة تفتح بقوتها الذاتية نافذة المستقبل

إسماعيل زاير

نوفمبر – 2000 - أمستردام

مثل كل فنان يرغب أن يكون معاصرا بالمعنى العميق للكلمة نرى فاضل نعمة وهو يعمل على لوحته خارج الخطاب اليومي والعلاقات المألوفة مع الأشياء والحواس، أكثر من ذلك يطمح فاضل إلى رسم ينطوي على بصيرة تشكيلية، ولكنه في النهاية، ولوحة بعد أخرى، يحاور وينتقي مفرداته ليقدمها إلى المشاهد كجسر للتواصل مع العالم من جهة، وكشهادة وتحديد للموقع الذي ينطلق منه والأرضية التي يقف عليها. وباختصار رؤيته لنفسه وللعالم. بعد أكثر من عقد من السنين على انطلاقة وتخرجه من أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد، يعود إلى ذاكرته لينبشها ويستنبط منها صياغاته الجديدة للوجود. فهو إذ يرسم تحتشد الصور والوثيمات في لوحته لتكون مجاميع متماوجة تلتقي وتفترق ضمن إيقاع متوتر كما هي الحياة الحقيقية. ولكن إسقاطه لشحنة الاحتدام والتوتر لا تشغله عن الانتباه إلى إخراجة للمشهد العام للوحته بجماليات معاصرة للغاية. فهو يربط التفاصيل بالفضاءات، ويفصل الكتل عن بعضها من دون أن يتخلى عن حداثة لوحته.

وبفضل هذه اليقظة نرى أن أعمال فاضل تكتفي بشرط حداثتها كجواز للتفاعل مع الآخر، فهو يعتبر أن تمسكه بهذا الشرط إنما يجعله حقيقيا أكثر من أي شرط آخر. ولكن الممتع في الأمر عن فاضل هو أن حداثته تتجه بوعي صارم نحو الممر السحري إلى المستقبل ومن دون أهام، وهو يتنم، أطروحة فاسل، كاندنيسك، القائلة: ((إن كل فن لا ينطو، فمن ذاته علم

قوة مستقبلية هو فن عاقر!)).

إرث المكان الأول ولوعته:

في انتقالات فاضل عبر المكان ورحلاته ومنافيه، جال قارات عديدة قبل أن يستقر ويحط الرحال في هولندا، ولكنه جرجر في كل تلك الأمكنة إرثه المكاني وبيئته الإنسانية، وتمسك بدهشته الطفولية، وبالمحيط الكربلائي، إلى قدر لا يمكن أن نخطئ انعكاسه في كل لوحة، بل في كل تخطيط صغير. فهو ارتقى بوعيه البصري داخل المحتشدات العملاقة وما يجاورها من عتبات ومراقد مقدسة. لذا ترى في لوحته خامة لا تخفى على العين البصيرة مرسومة بأنغامها اللونية المميزة: الأحمر القرمزي، والأخضر – المزرق، والبنّي، والأسود.

وربما يسمح المقام هنا أن نذكر أن رسامي البلدان الساحلية غالباً ما يستعيدون لون اللازورد (الأخضر + الأزرق المخفف). ولكن الذاكرة العراقية التي ليست بذاكرة بحرية تتشرب بلازوردها الخاص من الفضاء المحيط في القرب والمآذن والمقامات الدينية التي تملأ المكان والزمان العراقي.

وهو مثل الكثير من أترابه من أبناء الجيل الثمانيني والتسعينيني لا تعوزه الشجاعة للخروج من الإطار الأكاديمي الرباعي والمستطيل للوحة، إلى أشكال منبثقة من المحيط النفسي والاجتماعي ذاته، فنراه يرسم ضمن شكل الختم السومري والآشوري أو يستخدم الدائرة والسقف المقوس وغيره من الأشكال، دون أن تتوقف عند شكل الإطار الرباعي. هنا نجد انتماءاته إلى تقاليد أساتذته العراقيين الذين طوروا مثل هذه التقاليد وكرسوها.

من الموروث ذاته نتلمس، قوة التحسد ممتداً إلى جمع أعماله تقديراً ويقدر من المبالغة

أحيانه جاعلامنه قوة الجذب والتفريق الطاغية. فالعمق الذي يوفره التجسيد هنا، إذ يكتظ بتفاصيل الحشود (ولكنها حشود غير تشخيصية) للأشكال وتوزيع الفضاءات، يعطي المشاهد الانطباع أنه على وشك الولوج في المكان أو الخروج منه بالأحرى.

ومع المزايا التي تفرزها هذه المقتربات إلا أن لغته التشكيلية تشي – إذا لم نقل إنها تفصح – عن انقياد الكائن لشرطه والتصاقه بروح التكوين والنسيج العام. كما لو أنه يحتفي بوجوده في المكان ومن خلاله. أي أننا قلما نجد الكيانات والكتل وهي متحررة من علائقها بما يحيطها، فكما في الحياة الحقيقية يبدو الكائن – أو ما تبقى منه – وكأنه يحتفي باندغامه وتلاشيه في حشد يشده عضويا إليه.

لوحة تعني بحداتها وموسيقاها الداخلية:

ثمّة بعد آخر بوسعنا أن نلمسه في لوحة فاضل نعمة هو الحس الجغرافي الخفي الذي رغم كل ألوانه وخلطاته يبقى متجسدا وجليا للغاية، وربما يعود ذلك إلى تجربته بهذا الجانب الإبداعي المميز للفنون العراقية المعاصرة، وهي تجربة إغناء من دون شك، إلا أنها تطرح تحديا بصريا إضافيا على الفنان تجعله أمام خيارات مركبة في التعبير. ومن إفرازاتها اللاحقة انحباس حزمة الألوان في بؤر التركيز الجغرافي وتوزعها على السطح من تلك البؤر. هذا ما دفع النقاد التشكيليين الذين كتبوا عن تجربة فاضل إلى الإشارة إلى التراص المفرط للتفاصيل والتشظي المشحون للأشياء إلى درجة الإحساس أننا أمام لوحة ملحمية أكثر منها لوحة دهشة بصرية بحتة.

ولكن أشكاله اغتنت بنفس جديد منذ بضعة سنوات لاسيما لجهة توجيه التكوين ليخدم تعبيرات أكثر تلقائية و عفوية مما يوظف تقاليد خبرات غربية مترجمة، له حته تعمقها أو لا

كونها تطلقها في سماء أكثر فسحة، ولأنها تقدم لفاضل تلبية لازمة لحاجته إلى تفرغ شحنه التراص الموروث وتسريبها عبر إطلاقها ضمن آلية جديدة تكون الحواس العفوية أحد محرقاتها.

وتنطوي لوحة فاضل الآن كما في السنوات الأولى على غنائية وموسيقى داخلية ملموسة، وعمران مميز ينقل للمشاهد موضوعه البصري عبر ترتيب موسيقى تتنوع وتائرته مرة بعد أخرى، حيث هو صاحب وواضع مرة، ومديد ومسترخ مرة أخرى.

إن تجربة فاضل نعمة في النهاية تجربة تشكيل حديث ولكنه غير منقطع عن الذاكرة.. تجربة تكتسب حيويتها من داخل الفنان وليس من خارجه، ومن داخل العمل وتقنياته وشحنه النفسية وليس من خلال الموضوع ورمزيته.

هنا لا بد من القول إن تعبيرية فاضل تنأى بعيداً عن الرمزية والمباشرة التي سقط فيها قسط كبير من جيل التشكيليين الرابع في العراق، كما بوسعنا أن نطلق عليه.

أي أن فاضل لم يتعزز على الموضوع أو الكليشيهات التشكيلية التي ابتذلها فن السلطة ومؤسستها. وهو إذ أنقذ لوحته من ابتذال التراثية والهوية والشعاراتية هو قرنهما بعناصر تشكيلية موضوعية يدخل بها ومعها إلى المستقبل بقوته وحيويته الذاتيتين.